الثلج

قصة بقلم ياسين رفاعية

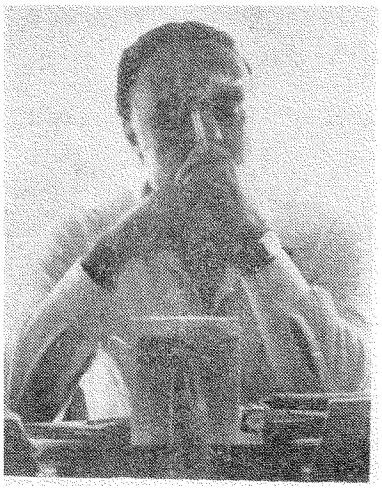

الحجر له طراوة الجسد . التراب له لون مغابر هذه المرة . انه بلون الدم .

كانت الاصابع تقبض بشراسة على فولاذ البندقية ، حملق « ابو معتز » جيدا باتجاه الحقول الخضراء . حاول ان يزحف قليلا، لم يستطع . كان جسده ثقيلا . حاول بيده اليسرى ان يسد الثقب . الالم لا يحتمل . انه شديد الوطء على قلبه . كان دمه الحار يتدفق بسخاء . حاول هذه المرة ان يتحرك وينقلب على ظهره . بذل جهدا كبيرا كي يفعل ، حتى اذا نجحت المحاولة ، اراد ان يرفع يده ملوحا . لم يستطع . اراد ان يصرخ . خرجت الكلمات واهنة . ادرك انه منته لا محالة ، لكن ذهنه ظل يعمل بصفاء مدهش : « انه لو استطاع الزحف مائتي متر ، لنجح في وضع اتديناميت في الجرافة . لا شك أن هذه الجرافة تشق طريقا وتمهده للدبابات وحاملات الجنود » ابو معتز يجب أن لا تذهب رخيصا » لكن هذه الرصاصة التي اخترقت ظهره وأحدثت هذا الثقب الكبير ، لم يطلقها عدو ، فالعدو هناك ، بعيد ، بعيد . هل مطلق الرصاصة عميل للعدو . عميل للعدو لا يفعل ذلك ، غايته ان يلقوا القبض عليه حيا . لانهم قد يستفيدون من معلوماته لو تم القبض عليه حيا . العميل كان سيناديهم باللاسلكي محددا مكانه . وكانوا سيأتون اليه ويحاصرونه ويضيقون الخناق الى ان يتم القبض عليه . من هو اذن مطلق النار من الخلف ؟

رغم برودة الفجر ورطوبة الارض ، كان ابو معتز يتلوى في جحيم . ولقد كثرت البنادق في وجهه الآن ، عشرات من الفوهات الفولاذية تتراقص امام عينيه . أحس بفرح طاغ يغمره . لا بد انهم الرفاق . جاؤوا ينقذونه . لا يريد أن يموت هكذا دون ان يفعل شيئا. برصاصة غدر تأتيه من الخلف .

مد يده متوقعا ان تدخل اصابع قوية في اصابعه الواهنة تشده الى صدر صاحبها ثم تنقله بقوة الى كتفه وتذهب به بعيدا حيث يتم اسعافه . لكن شيئا من هذا لم يحدث . بل ان البنادق والعيون تلاشت من امامه كأنها حلم . حاول مرة اخرى أن يصرخ . الا ان صوته لم يخرج هذه المرة ابدا . يذكر انه تسلل عبر مسافة طويلة لينفذ المهمة الملقاة على عاتقه . قال له الضابط : « يجب نسف هذه الجرافة . قد لا يعني هذا خسارة كبيرة لهم . ولكن يجب افهامهم اننا موجودون . واننا سوف نلاحقهم في كل مكان . وان تصفية الاصدقاء لنا آن تنجح كما يتصورون هم ، نرجو لك ان تنجح . وان نراك هنا . ولكن اياك ان تعود قبل تنفيذ المهمة » .

كان خوف « ابو معتز » شديدا . كيف لو لم يستطع تنفيذ المهمة ، وبالتالي لم يعد ؟

دبت قوة مدهشة في جسده . وعندما انقلب مرة ثانية على صدره تشبث ببندقيته الرشاشة ، واخذ يتقدم زاحفا نحو الجرافة . انه يلمح جيدا الآن جنديا من العدو يرقب الجهة الاخرى باطمئنان ولامبالاة ظاهرة . عض ابو معتز على شفتيه ألما . قبل اشهر لم يكن احد من جنود العدو يستطيع الوقوف بمثل هذا التحدي . بل ما كانوا يستطيعون التنفل الا داخل دباباتهم . ها هو الآن يقف مطمئنا، فثمة من يحميه من الطرف الآخر .

منذ زمن طويل لم يبك « ابو معتز » . تقول له امه انها رأته يبكي مرة واحدة عندما تركوا كل شيء عام النزوح الاول وفي ظنهم انهم سيعودون بعد اسابيع . كان وديع (اسم ابو معتز) يحاول الافلات من يد امه للعودة الى البيت . لم يكن راغبا في الهرب . كان متشبثا في البقاء اكثر من اي طفل آخر ، وكانت أمه تشده شدا . كان يبكي بكاء مرا صارخا : « لا اريد الذهاب معكم ياما ... لا اريد » .

وما ان كفت الام عن الركض ،حتى كف وديع عن البكاء . لكن حزنا عاش في ما بعد في عينيه ، لا يكاد احد يعرف تفسيرا له . ارادوا السفر الى اميركا . وتارة الى كندا . واخرى الى العراق او ليبيا . لكن وديع الذي اصبح شابا له رأيه ، كان يرفض دائما. وكان يقول : لا بد ان نعود ، ويجب ان تبقى قرب الحدود حتى اذا حان الموعد كنا اول العائدين . ولذلك اختاروا بلدا ملاصقا لحدود الارض التي يحتلها العدو .

الآن ، بعد كل هذا العمر من الحزن الجامد ، الحزن الصخري ، الحزن الموجوع دون صراخ . ها هو ابو معتز لا يستطيع حبس دمعه . وها هو ينزف من عينيه مثلما ينزف من جرحه ، وهو اذ يجبل التراب داخل الثقب في محاولة لمنع هذا النزيف الحاد ، يتساءل : هل يمكن ان يكون كل هذا الدم دمه ؟

كم مر من الوقت ؟

الجرافة لا تزال بعيدة ، كأنه كان يزحف الدهر كله . كيف سيصل ؟ ما من أحد يراه الآن . انه يلتوي على كتف صخرة مجبول بالتراب والطين والدم والاشواك . انه يلهث . ويكتم شخيره بكل ما يملك من قوة . لا . لن يستطيع التقدم ، لقد انتهى كل شيء .

اذن ، ماذا أنت فاعل ؟

يجب ان افعل شيئا ، يجب افهامهم اننا موجودون بأي شكل .

استلقى ابو معتز الى جانب الصخرة ، وراح يحدق هناك ، في ارض فلسطين . وبذل جهدا مميتا كي يركز ذهنه على أمر ما ، ماذا سيفعل ؟ سيرجو ان يظل هذا الجندي في مكانه . اذا فعل ، سيكون قادرا على تصويب رصاصة الى صدره ، ورميه .

بذل جهدا كي يتخذ وضعا يستطيع فيه ان يرمي جندي العدو . وما ان صوب باتجاهه حتى التفت هذا الى داخل الارض المحتلة . وبان ظهره لابي معتز في قلب الهدف . فتذكر الرصاصة التي ثقبت ظهره . وتجسد لديه شعور الاحتقار والقرف تجاه الذي غدر به على هذا النحو . لا ، يجب أن لا يحس أي انسان تجاهه بمثل هذا الاحساس . لن يطلق رصاصته في ظهر جندي العدو . لا ، ان يفعل. وابتعد الجندي عن هدف ابي معتز . وكان عصفورا أفلت من يد

الصياد .

عاد ابو معتز الى الاختباء في حنايا الصخرة . وراح يراقب عودة الجندي . في نفس الوقت ، بدأ يشعر ان جسده أصبح أخف ثقلا . كأنه يسبح في الفضاء .

اسند رأسه الى الحجر ، لم يعد يميز شيئا من حوله ، كل ما حوله بلون الدم . ها هي الشمس تطل بدفئها ، انها تدخل رموش عينيه ، تصافح وجهه ، تنام تحت ابطه ، تداعبه خيوطا خيوطا . « حنان » تجيء مع الشعاع . لونها بلون البلور . عيناها صباحان ، يفتح ذراعيه لها ، تدفن رأسها القمحي اللون في صدره . آه ، الآن تفعلين يا حنان . كان الخجل أحيانا يمنعك . وكان العناد يمنعك أحيانا . كم فتحت لك ذراعيّ ، فكنت تعطينني يدك . يدك فقط . وكم كنت اتمنى ان أضم رأسك الى صدري وأغمرك بحناني ، كنت تقولين : انتظر ، سيأتي اليوم الذي أصبح فيه لك . وكنت يا حنان تحبين الصباح . كم مرة ايقظتني في الصباح ، لانك والصبح توأمان ، لانك والنور أرض الخصب .

الآن ، يا حنان ، ها هو رأسك في صدري ، وها أصابعي المدماة تدخل خصلات شعرك الاشقر كفزاة يحتلون الوطن ، الآن ، يتحقق حلمي فيك » .

ولو ان عينا ترى أبو معتز هذه اللحظة ، لرأت أصابعه تدخل في ظل شفاف ، بلوري الجسد ، كأنه الريح ، وكأنه قطعة غيم ، بل كأنه جسر من نور ، ليس مثله جمال آخر .

حنان بكل روعتها كانت بين يدي أبي معتز . عروسه التي وعدته ان تكون له بكل ما فيها من انوثة وحب بعد عودته من مهمته الاخيرة . لم تقل له يوما سأكون لك عندما ندخل القدس ، او الخليل ، او بيت لحم . كانت تعرف ، كما كان يعرف هو ، ان هذا الحلم بعيد التحقيق ، وان كان حلما قابلا للتحقيق .

تلك الليلة ، قبل ان يذهب بساعات ، ها هو حاضر بين يديها، حاضر بكل حبه وحنينه . حاول ان يضمها الى صدره .

ـ ماذا يا وديع . كف عن هذه الولدنة .

ـ احبك يا حنان .

ـ احبك ايضا ، انا احبك يا وديع .

ـ تفرين مني !

ـ انا لك ، كيف أفر منك .

ـ أريد الآن وعدا منك ، متى ستتزوج ؟

ـ عندما تريد .

ـ لن تؤجليه اكثر من ذلك . لقد تعبت من الركض وراءك .

ـ لن تتعب بعد اليوم . سأكون زوجتك بعد عودتك من مهمتك الاخيرة .

ـ غدا ساعود .

ـ وغدا ستتزوج .. أنا أيضا لم اعد أطيق صبرا .

وأراد ابو معتز ان يضمها من جديد الى صدره ، فنفرت حنان كالعصفور ، ووقفت بعيدا . تقدم منها . اخذ يدها الى صدره ، قبّل أناملها الطرية . أخذ رأسها بين راحتيه وقبل جبينها . ثم همس لها : اذا استطعت سآتيك بهدية من هناك . همست : « عد سالما .. هذه هديتي العظيمة » .

لم يشعر ابو معتز باليتم كما شعر به هذه اللحظة . وها هو يموت برصاصة غادرة . لن يعود سالما الى حنان ، لن ينفذ المهمة ،، لن يدفن في أرض الوطن » .

حركة توقظ ابو معتز ، لا يرى شيئا ، انه يلهث ، لم يعد يستطيع ضبط نفسه ، شخيره يعلو ، انه في بركة من الدم . عيناه مفتوحتان جيدا لكنه لا يرى الا بياضا ، كل ما حوله بلون الثلج . هل يتساقط الثلج ؟ منذ زمن لم ير ثلجا يتساقط . صوت لهاثه يطغي على كل صوت . حاول ان يرهف السمع الى شيء آخر . سكون . سكون عجيب . لا حركة . رأسه يسقط في هوة سحيقة . فتح أجفانه جيدا ، أجنحة سوداء تصفق فوق وجهه . السماء قريبة قريبة حتى لتكاد تلتصق في بؤبؤ عينيه . يحاول ان ينهض ، يتكيء على راحتيه. لا يستطيع الارتفاع الا قليلا ثم تخور قواه ويسقط . يتلوى ، انه ريشة في مهب الريح ، الريح تحمله ، كم هو خفيف الوزن . آه السكاكين تلمع فوق عينيه ، سيذبحونه ، لكنه لا يرى أحدا ، يحاول ان يمسح شفتيه الجافتين بلسانه . لا يستطيع . ماء . يريد ماء . انه عطشان . الثلج يغمره ، يفتح فمه للثلج . الريح تقذفه بعيدا . يحاول ان يحرك اصابعه ، الفولاذ وحده في اصابعه . يضغط على الزناد ، لا يستطيع ، سكين حادة تقطع يده الاخرى . لا يجدها ، أين هي ، يده ما زالت ملتصقة بكتفه « آه لو يستطيع ان يفعل شيئا » . الثلج يغمر الجسد . الاجنحة تملأ السماء ، لا صوت في الريح ، لا صوت في الجسد ، لا صوت في الثلج . الذباب يجيء . من أين جاء الذباب ؟ الذباب ثلج ، الثلج اسود ، الشمس سوداء ، النور اسود . حنان شمعة تذوب . حنان تطفئها الريح . حنان : القمح يأكله الجراد . الحقول تقصف عروقها الجرذان . الاظافر الشرسة تدخل عينيك الخضراوين .

حنان مصلوبة اليدين . رجال معقوفو الانوف طويلو الذقون ينزعون ملابسها ، يطفئون سجايرهم في جسدها الابيض النضر . حنان تناديه ، حنان تصرخ ، حنان تبكي ، حنان يغتصبونها . وديع . وديع . وديع .

وديع الطفل يبكي . يفلت من يد أمه . ينكفيء راجعا . الرصاص . الرصاص . الرصاص . وديع يسد اذنيه . لا يريد ان يسمع صوت أمه . يظل وديع يركض . يركض . وديع يركض حتى يدخل بيته . لن يخرج . يحاصرون البيت . اخرج يا ولد . لن أخرج من بيتي . هذا بيت أبي . أبي هنا ولد . انا هنا ولدت ، لن اخرج . اخرج يا ولد . لن أخرج . الدبابات تحاول اقتحام البيت . يصمد البيت الطيني . المدافع تدك الباب الخشبي ، ترتد القذائف كأنها حجارة من الطين . وديع يبتسم . لو ان كل الاطفال لم يغادروا بيوتهم لظلت بيوتهم لهم . وديع ينتصر ، وحده ينتصر .

صوت حنان من جدد يناديه ، يستيقظ ابو معتز . العرق يبلل جبهته . ها هي حنان بين يدي الجندي ، عارية ، جسدها يحترق ، الدخان يتصاعد من ثقوب السجائر . انه الجندي ذاته . لو أطلق الرصاصة في ظهره لكانت حنان سليمة الآن .

أصابع ابو معتز تتحرك ، يده المقطوعة تتحرك ، يتسلق ابو معتز الصخرة . ها هو الجندي يقترب منه ، انه بعيد ، لا يقترب . يخطو الى الخلف ، كيف يمكن لانسان ان يمشي الى الخلف بهذه السرعة ؟ يصوب ابو معتز بندقيته ، يبدو صدر الجندي عريضا ، عريضا كأنه جدار . يضغط ابو معتز على الزناد ، تخرج الرصاصة بطيئة بطيئة دون صوت ، تصطدم بالجدار ، ينفجر الجدار ويتبعثر في الريح مزقا مزقا . تختلط ذراته بالثلج المتساقط . الثلج أحمر ، الثلج بلون الدم ، الثلج جريح ، الثلج ينزف .

حنان تصير طيرا أبيض . ها هو الطير يصفق بأجنحته فوق رأس وديع . عينا الطير في عيني وديع . جسد وديع يرتجف. الصقيع يدخل شرايينه . الدم يتجمد فوق الجرح . أسنانه تصطك . يخفت شخيره . الطير الابيض يهبط ويغمر وديع بجناحيه . ها هو دفء حنان يذيب الصقيع ، تغمره اكثر ، يشعر وديع ان جناحي حنان كبيران كبيران كأنهما رداءان من الصوف . يدخل تحت جناحيها اكثر. يغمض عينيه ، يشعر لاول مرة باطمئنان آسر ، اطمئنان لم يكن يعرفه من قبل . فيرتاح ... ويظل الجناحان الابيضان يلتفان على جسد وديع رويدا رويدا ، حتى يغيب وديع فيهما تماما . ينهض الطير الابيض بالجسد الساخن ويطير به في اتجاه فلسطين .

دمشق — ياسين رفاعية